الشواهد المادية للإسلام في السودان:
مقدمة في دراسة المدافن والقباب

انتصار صغيرون الزين

يمثل السودان، بتنوعه الجغرافي والبشري، نموذجاً فريداً للآثار الإسلامية في القارة الأفريقية. وقد كان لسكان وادي النيل الأوسط وأجزائه الممتدة شرقاً وغرباً، ثقافة حضارية ومدنية موغلة في القدم قبل دخول المجموعات العربية، مما أثر على نموه وتطوره إبان انتشار العرب الرُحَّل الناطقين بالعربية غرباً. وقد أدى ذلك إلى تكوين الدويلات الإسلامية وسلطنات الفونج والفور، وكلتاهما تقعان في الحدود الجنوبية لدار الإسلام. هذه الحدود أعطت هذه السلطنات مداخل لمنتجات السافنا والغابات مثل الصمغ والعاج والعبيد، وكلها كانت مطلوبة في دار الإسلام.

وبما أن السودان، أكبر قطر في إفريقيا، يحوي تنوعاً جغرافياً وثقافياً قبل الإسلام، فإن الاستجابة للدين الجديد وللسكان المهاجرين الجدد كانت متنوعة. وقد ظهر جلياً في أسلمته المتدرجة منذ القرن السابع الميلادي وحتى قيام الممالك الإسلامية في بداية القرن السادس عشر والتي شهدت الميلاد السياسي للإسلام في السودان. وهذه حقيقة أثبتتها الدلائل الأثرية والتاريخية المتنوعة بدءاً بشواهد القبور التي تعود للقرنين التاسع والعاشر الميلادي من مناطق الصحراء الشرقية والنوبة السفلى، ووثائق قصر ابريم التي أكدت وجود استيطان عربي في النوبة السفلى منذ القرن التاسع الميلادي (Adams 1984:464) بإشارة المقريزي لوجود حي للمسلمين (رباط) في سوبا عاصمة مملكة علوة (المقريزي ١٩٠٦: ص

٣١١-٣١٢) مروراً بأدلة المساجد القديمة في غرب السودان مثل عين خرج وأروي والتي أرخت إلى القرن الثالث عشر الميلادي وانتهاءً بأدلة الوجود العثماني شمال الشلال الثالث من قلاع وخلاوي وآثار ممالك الفونج والفور في الوسط والغرب.

وهكذا يتضح أن الإسلام قد دخل السودان مبكراً مع بداية الدعوة، وقد تعايش مع المسيحية في مملكتي المقرة وعلوة حتى نهايتها. ولا شك أن وفود العلماء والمصلحين القادمين من الجزيرة العربية ومن المغرب العربي ومن مصر بدأ في الازدياد مع نهاية مملكة المقرة في ١٣٢١م.

مما لا شك فيه ارتباط إسلام السودان بالطرق الصوفية منذ البدايات الأولى، التي أسهمت بشكل رئيسي في أسلمة العديد من المجموعات والأفراد وما زالت تواصل هذا الدور داخل وخارج السودان. وهذه الحقيقة تدعمها شواهد مادية وغير مادية، وفي هذه البحث سوف اتطرق إلى أحد أهم المعالم الصوفية المادية ألا وهي المدافن. ويجب التنويه هنا إلى وجود العديد من المشايخ الذين لم يدفنوا تحت قباب، بل دفنوا في مدافن عادية.

أنواع المدافن:

١- المدافن العادية: وهي عبارة عن شكل بيضاوي يرتفع قليلاً عن الأرض ويحاط بقطع الطوب أو الحجارة وقد يُغطى بالحصى، وهذا هو الشكل السائد عند العامة وعند مدافن بعض الشيوخ، ولكننا نجد نماذج نادرة مبكرة في إقليم المحس حيث :

أ- يرص الطوب الأخضر فوق القبر فى شكل الرقم ٧ (انظر اللوحة رقم ١ أدناه)

ب. ترص قطع الحجر بشكل رأسي (انظر اللوحة رقم ٢ أدناه)

اللوحة رقم (١): مقابر شيخ مرزوق – دلقو (تصوير الباحثة ٢٠٠٣)

اللوحة رقم (٢): مدافن كوكا – المحس (تصوير الباحثة ١٩٩٩)

٢- المصاطب: يدفن بعض الشيوخ تحت مصاطب مستطيلة كما هو الحال أيضاً عند بعض العامة من المشاهير والعمد، وهي عبارة عن طوب يُغطى بطبقة الأسمنت.

٣- الاسوار الحديدية: يدفن بعض الشيوخ - مثل بعض العامة - في قبر بيضاوي ويحاط القبر بسور من القضبان الحديدية (انظر اللوحة رقم (٣) أدناه).

اللوحة رقم (٣): مدافن حمد - الخرطوم بحري (تصوير الباحثة ٢٠٠٥)

٤- البنِيَّات: يدفن الشيخ وبعض أحفاده أو خلفائه ويحاط المكان بسور قصير يرتفع إلى نصف المتر أو أقل، كما نجد بعضها ترتفع حوائطه إلى أكثر من مترين وغير مسقوفة، وقد نجد بداخل بعضها تجويف المحراب.

٥- القباب: لفتت القباب أنظار الرحالة والمستكشفين والغزاة والتي ارتبطت بالشيوخ والأولياء، ولعل هذا الارتباط هو أحد المميزات الواضحة للإسلام جنوب الصحراء،

حيث نجد معظم مدافن الملوك والسلاطين تكون داخل المبنى المقبَّب، بينما في السودان ارتبط الدفن داخل القباب بالشيوخ والأولياء دون الزعماء. وقد بدأت القباب في الانتشار بصورة واضحة خلال مملكة الفونج، وتنتشر في السودان إلى الشمال من خط ١٥ في الجنوب وحتى حلفا في الشمال، وقد تنوعت في أشكالها ومقاييسها ومواد بنائها، وبصورة عامة يمكن أن نقسِّمها إلى ثلاثة أنواع رئيسة، ويحتمل كل نوع من هذه الأنواع متغيرات عديدة:

– النوع الأول: الشكل المخروطي الأملس ويتراوح ارتفاع القبة ما بين ٤,٥ إلى ١٠ أمتار: قبة الشيخ حمد بالعليفون ٣,٣٥ متراً، قبة الشيخ حمد ود ام مريوم ٨,٨٧ متراً، وقبة عبد الله الطريفي (أبوحراز) ١٥,٣٨ متراً . (انظر اللوحة رقم ٤ أدناه).

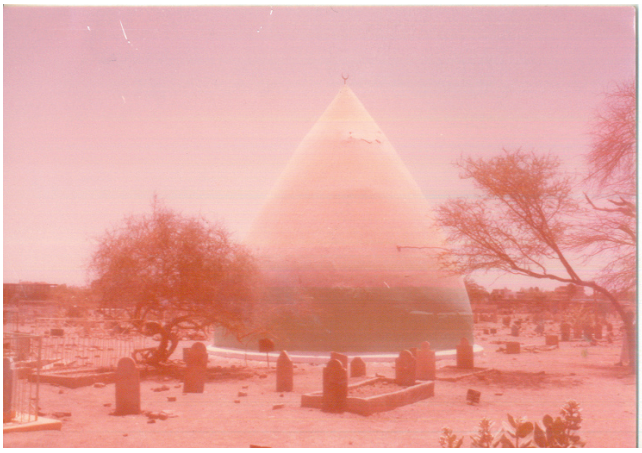

اللوحة رقم (٤): قبة شيخ حمد ود ام مريوم – الخرطوم بحري
(تصوير الباحثة ٢٠٠٥)

– النوع الثاني: النوع المدرَّج وهو في الغالب ثلاث درجات، كما أن الشكل الغالب هو المستدير، نماذج الشكل المربع قليل جداً ونجده في إقليم دنقلا والمحس، ويتراوح ارتفاع هذا النوع المدرَّج ما بين ٦,٤ متراً كما في قبة الشيخ حمد الأسد في أبوحراز، إلى ٨,٥ متراً كما في قبة أبوعاقلة الكشيف في نفس الموقع.

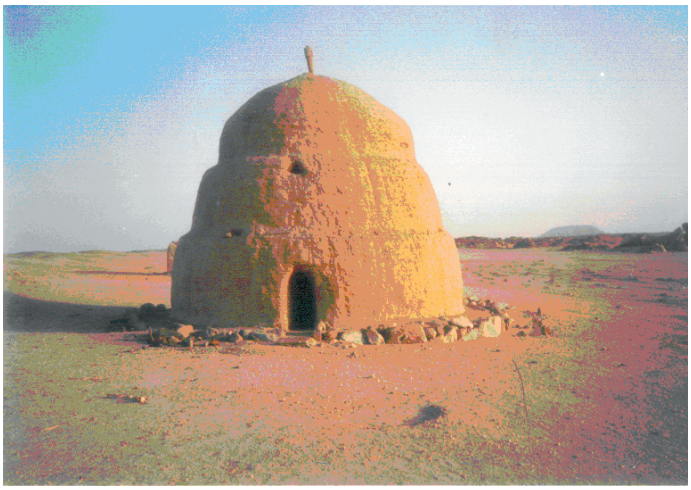

اللوحة رقم (٥): قبة كلومبللى – المحس (تصوير الباحثة ١٩٩٩)

– النوع الثالث: القبة المرفوعة فوق مبنى مربع وهو الآن الأكثر شيوعاً. ولعل البدايات الأولى كانت الغلبة فيه للشكل المقبَّب العلوي الذي ينال ارتفاعاً واضحاً مقارنة بالجزء المربع أسفله، مما يؤكد أن التركيز على الشكل المقبَّب (مثال قبة الشيخ أبوعاقلة المسك – أبوحراز، وقبة الشيخ إدريس ود الأرباب – العيلفون) (انظر اللوحتين أدناه، رقم (٦) – أبوحراز، ورقم (٧) – المحس)

اللوحة رقم (٦): قبة أبوعاقله المسك – أبوحراز (تصوير الباحثة ١٩٨٦)

اللوحة رقم (٧): قبة شيخ صالح – المحس (تصوير الباحثة ١٩٩٩)

كما أسلفنا، فإن الأشكال أعلاه هي الأشكال الرئيسة، ولكن داخل هذه الأشكال نجد الابتكارات والحلول المعمارية التي ابتكرها البنّاء السوداني فيما يخص الشكل الخارجي. ففي النوع الأول تمت إضافة بعض الزخارف في الأجزاء السفلى لبعض القباب مثل قبة الشيخ حمد ود ام مريوم، وفي حلة عثمان تستبق القبة مدخل مظلل. أما في النوع الثاني، فقد ظهر فيه التنوُّع في عدد المدرجات وفي شكل التدرج، حيث نجد بعضها ثلاث درجات وأخرى أربع درجات. كما نجد أيضاً الشكل المستدير والشكل المربع، وكذلك نجد أكثر من أربع درجات مثل قبة شيخ إدريس (كويكة – المحس). اللوحة رقم (٨) أدناه توضح أحد أشكال القباب المدرجة:

اللوحة رقم (٨): أحد قباب ود نميري (تصوير الباحثة ١٩٩٩)

أما الشكل الثالث، فقد نال نصيباً أوفر من الإبداع، فمثلاً قبة الشيخ عبد الكافي بالعيلفون، قام البنّاء بتدريج الجزء المقبَّب ليعطيها نوعاً من الشكل الزخرفي. وفي أبوحراز نجد قبة الشيخ أبوعاقلة المسك والتي شُطفت أركانها الأربعة ليصبح

الجزء الأسفل أشبه بالشكل السداسي. وفي اقليم المحس نلاحظ وجود القباب من النوع الذي يكون مدخلها من خلال حوش صغير (انظر اللوحة رقم ٩ أدناه):

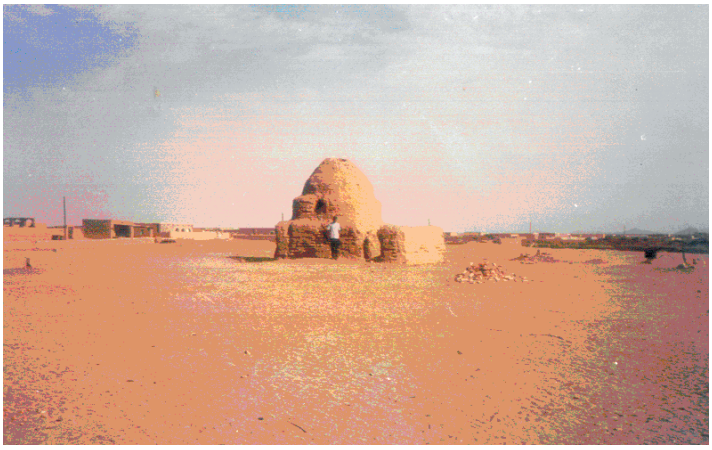

اللوحة رقم (٩): قبة في مدافن شده – المحس (تصوير الباحثة ١٩٩٩)

من المعروف هندسياً أن بناء الشكل المقبَّب فوق الشكل المربع يتطلب حلاً معمارياً لتحويل المربع إلى مثمَّن لتسهيل وضع الشكل المقبَّب. وبصورة عامة يظهر الشكل المثمَّن في الشكل الخارجي، ولكن في القباب السودانية يُلاحظ اختفاء هذا الشكل الخارجي من معظم قباب النوع الثالث مع الاهتمام بإظهار الأركان الأربعة سواءً بنتوءات بارزة أو وضع قباب أو أبراج صغيرة. وتنتهي معظم هذه القباب بشكل الهلال أو كرات صغيرة.

كما اهتموا بالزخرفة الخارجية للجزء المقبَّب مثل الأضلاع التي تحيط بقبة الشيخ أحمد محمد يونس (أبوحراز) والطوب المرصوص في شكل زقزاق (أبوحراز).

المداخل:

معظم مداخل القباب قبل بداية القرن العشرين قصيرة جداً، ويشمل ذلك كل الأنواع السابقة، ولعل ذلك من باب الاحترام للشيخ عند دخول القبة حيث يضطر الزائر إلى الانحناء وأحياناً إلى أن يحبو من أجل الدخول (انظر اللوحة رقم (١٠) أدناه):

اللوحة رقم (١٠): مدخل قبة شيخ صالح – المحس (تصوير الباحثة ١٩٩٩).

الداخل:

١- المدفن الرئيسي: تحتوي القباب على مدفن رئيسي والذي غالباً ما يحاط بسور داخل تابوت خشبي أو من قضبان الحديد ثم تغطى بقطع قماش مختلفة يغلب عليها اللون الأخضر، ونجد بقية المدفونين مصفوفين بجوار الشيخ، وقد يفصل بين القبر والآخر حائط قصير.

٢- المحاريب: نجد محراباً بداخل كثير من هذه القباب بأنواعها الثلاثة ومتنوعاتها، بالإضافة لفتحات مثلثة لوضع لمبات الزيت. وتتنوَّع أشكال هذه الفتحات، حيث نجد شكل الحرف V معكوساً والذي نجده أيضاً في مداخل بعض القباب، بالإضافة إلى الشكل المقوس. اللوحتان رقم (١١) ورقم (١٢) أدناه يعكسان نموذجين لمحاريب القباب في السودان:

اللوحة رقم (١١): محراب قبة شيخ ادريس بالعيلفون (تصوير الباحثة ١٩٨٦)

اللوحة رقم (١٢): محراب قبة قامي بالمحس (تصوير الباحثة ١٩٩٩)

٣- نقطة التحويل من مربع إلى مثمَّن: برع البنّاء السوداني في مسألة تحويل الشكل من مربع إلى مثمَّن باستخدام المواد المحلية بصورة بسيطة جداً، حيث يضع في الأركان الأربعة قطعاً من بلوكات الخشب أو بلوكات الحجر كما هو الحال في قبة الشيخ عبد الكافي، ثم ينتقل إلى الحنيات الركنية بأشكالها المتعددة المعروفة في العمارة الإسلامية، كما نرى في اللوحة رقم (١٣) أدناه:

اللوحة رقم (١٣): الحَنيَة الركنية – قبة قامي (تصوير الباحثة ١٩٩٩)

ولعله من المهم أن نذكر في هذا المجال إبداعاً آخر للبنّاء السوداني، حيث نجد بعض القباب ذات الشكل المربع ويعلوها المقبَّب من الخارج، ولكن لا نجد من الداخل أثراً لذلك، بل هي مستديرة من القاعدة وحتى نهايتها. وخير مثال لذلك قبة الشيخ أبوعاقلة المسك في أبوحراز، مما يؤكد الاهتمام بالشكل الدائري وهو شكل الأكواخ الدائرية المعروفة في السودان منذ تاريخه القديم وحتى الآن.

الزخارف:

هناك محاولات قليلة لزخرفة القباب خارجياً وداخلياً، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة التصوف والتقشف. ومن أمثلة زخرفة القباب الزخرفة (texture) على الجزء الأسفل لقبة شيخ حمد ود ام مريوم، والزيقزاق (zigzag) باستخدام الطوب كما في قبة الشيخ يونس (أبوحراز)، والأضلاع حول قبة الشيخ محمد يونس (أبوحراز)،

وأشكال الأعمدة أو المنارات في أركان الجزء المربع من قبة الشيخ إدريس ود الأرباب بالعيلفون، والقباب الصغيرة على الأركان في معظم قباب النوع الثالث.

خاتمة:

هذه مجرد ملاحظات أوَّلية خرجت بها من خلال دراساتي السابقة للقباب في أجزاء مختلفة من السودان. وما زال معظم هذه القباب يحتاج للتوثيق والدراسة المتأنيَّة، وهنالك نماذج نادرة ما زالت موجودة في حالة مهدَّدة بالزوال مثل قبة قباتي، وهنالك بعضها زال من الوجود بسبب حرص المريدين والأسر على إعادة بناء القباب. فقباب العركيين بأبوحراز قد تمت إزالتها جميعاً وإعادة بنائها، وبسبب ذلك فقدنا معظم النماذج المذكورة أعلاه، كما فقدنا قبة الشيخ عبد الله العركي وهي في شكل هرم ، وهي أقدم قبة في منطقة أبوحراز.

أضف إلى ذلك أن الكثير من هذه القباب مهمل، بل حتى أسماء أصحابها غير معروفة، وقد بدأت عوامل الزمن تنخر فيها، مما يتطلب تحرك الجميع لجمع التراث الشفاهي ولتوثيق ما تبقى منها بالرسم والتصوير ثم التوريخ باستخدام تقنيات علم الآثار مع المعلومات التاريخية.

أما فيما يتصل بأبراج شرق السودان، فما زال الأمر قيد البحث: هل هي منارات لإرشاد القوافل تم الدفن بجوارها ، أم هي أبراج دفن كما هو الحال في شرق إيران وأفغانستان؟

ومن المؤكد أن للقبة أو القباب مكانها داخل قلوب معظم أهل السودان، كما لها أهميتها باعتبارها شاهد قبر يعنى تواصل الأفكار منذ العصور القديمة وحتى الإسلام، ومن هنا لابد من إدراجها ضمن الآثار التى يجب المحافظة عليها وصيانتها

بالطرق العلمية والمحافظة عليها من عوامل الزمن، وإذا كان لا بد من الإزالة فيجب أن يتم التوثيق الكامل كما ذكرنا سابقاً.

ولعل المشكلة الرئيسة أنها تعتبر ضمن أملاك أحفاد ومريدي الشيوخ، ولكن هذا لا يمنع تدخل الجهات الرسمية من أجل الحفظ والتوثيق، ودون شك لن يمانع أصحاب الشأن في هذا الأمر.

إذاً تكمن العلة في أن الآثار الإسلامية بصورة عامة، وقباب الأولياء بصورة خاصة لم تجد لها طريقاً داخل أروقة مصلحة الآثار سابقاً والهيئة القومية للآثار حالياً، مما يستوجب وقفة قصيرة لحفظ ما تبقى، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال مسح عام للتوثيق والتسجيل، فربما كشف لنا عن أشكال جديدة وكثيرة.

المراجع

– تقي الدين المقريزى (١٩٠٦): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بيروت: دار صادر.

- Adams, W. A. (1984): *Nubia Corridor to Africa*. Princeton.

- Elzein, I. S. (1986): Islamic Domed Tombs of Central Sudan. Unpublished M.A. Thesis.

- ---------- (1998): "lslamic Qubbas as Archeological Artifacts: Origins, Features and their Cultural Significance", in: *Proceedings of the Ninth Conference of the International Society of Nubian Studies*, ed. by T. Kendal. Boston, 1998, PP. 397-413.

- ---------- (2004): *lslamic Archeology in the Sudan*. Oxford: BAR International Series 1289.

- Osman, A. M. (2004): "Archeology and Settlement in the 3rd Cataract Region during the Medieval and Post-medieval Periods", *Azania* xxxix, pp. 34-49.